

المحاضرة (٩)

جماعة الديوان

عوامل مؤثرة في تطور الشعر:

على الرغم مما قدمه شعراء الاحياء (المعتدلون) من جديد في مجال القصيدة الحديثة إلا إنهم ظلوا مشدودين إلى جذور القصيدة القديمة في موضوعاتها واساليبها ومعانيها وصورها. والسبب في ذلك، هو أن مفهوم الشعر ووظيفته لديهم، بقي إلى حد بعيد لا يغادر مفهومه القديم، حتى فيما جددوا من موضوعات، وسلوكوا من أجناس أدبية، كما حصل لشوقي.

ولقد كان إلى جانب هؤلاء، جيل آخر، وعي الشعر ومفهومه ووظيفته، على نحو ما شاع لدى شعراء التيار الرومانتيكي في أوبا، والانكليزي منه على الخصوص وفي مقدمة هؤلاء الشعراء، مجموعة أطلق عليها (جماعة الديوان)، مؤلفة من عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري وإبراهيم عبد القادر المازني.

لقد عاش هؤلاء الشعراء النقاد، في ظل منعطف ثقافي وفكري واجتماعي وسياسي، ظهرت بوادره منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وقد دفع إلى هذا التغيير عوامل شتى، ألمحنا إليها في تمهيدنا لهذا الكتاب، ولكنها أنت أكلها في مطلع هذا القرن بفعل تدفق الصحف الأوربية، التي حوت كل جديد في الادب والسياسة والاجتماع والنظريات الفلسفية والمذاهب الأدبية. وكان لحركة الترجمة التي نهضت على يد رفاة الطهطاوي، الأثر الفاعل في عملية التغيير، إذ تم ترجمة المئات من القصص الغربي وكتب النقد، ومنها كتاب (الذود عن الشعر) لشيلي وهازلت وقواعد النقد الادبي لابركمبي و(فنون الادب) لتشارلتن (منهج البحث في اللغة والأدب) لانسوناميهو (فن الشعر) لهوارس. وغير ذلك في الكتب الأدبية والنقدية.

كما ترجم من الشعر آثار عديدة الأقطاب التيار الرومانتيكي والرمزي من أمثال فكتور هوجو ولأمرتين والفرد دي فيني وألفرد دي موسيه وفرلين وبول فاليري وبود لير.

وقد اهتمت الصحف والمجلات بترجمة الآثار الشعرية على صفحاتها، وفي مقدمتها المقتطف والسياسة والثقافة والرسالة.

وفي الشعر ترجم الكثير من آثار شكسبير وكيتس وشيلي وودزورث وترجم خليل مطران لشكسبير (هاملت ومكبث وعطل وتاجر البندقية والملك لير) وعرب محمد عوض ابراهيم (كما تهواه) و (انطونيو وكليوباترا) و(الليلة الثانية عشرة) وترجم على محمود طه لشيلي في كتابه (أرواح شاردة) وترجم العقاد لتوماس هاردي في كتاب (ساعات بين الكتب) وغير هذا كثير.

وهكذا تصبح كتب الادب والنقد والمسرح والرواية في متناول الأيدي، وتعطي ثمارها الناضجة في عملية التأثير.

وكان للبعثات أثرها الفاعل في تطور الأدب، ويكفي أن أحد أقطاب جماعة الديوان وهو عبد الرحمن شكري، ومعه رأس جماعة أبو لو - احمد زكي ابو شادي- وإبراهيم ناجي، انهم زودوا بالثقافة الانكليزية الشعرية أثناء إقامتهم في انكلترا للدراسة فيها. وتعمق المازني بالثقافة الانكليزية، وكون العقاد لنفسه ثقافة أوربية عميقة وواسعة جعلته أحسن نقاد عصره وشعراء جيله. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان للمذاهب الأدبية الأوربية التي غزت رياحها الوطن العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر، تأثير شديد في شعراء هذا الجيل، أولاً لأنه ينسجم مع طبيعتهم التواقة لكل جديد، وينسجم مع نفوسهم الالاسية التي اكتوت بنار الواقع المرير السياسي والاجتماعي والفكري.

ولقد تهيأ لهؤلاء أن المذهب الرومانتيكي بالذات- وهو المذهب الذي يسعى إلى هدم القديم- هو الذي يحقق ما يدعون إليه من أدب ابتداعي، يخاصمون به الادب الادب الاتباعي. وقر في أذهانهم أن هذا المذهب جاء تعبيراً عن المفاهيم المعاصرة للطبقات المتطلعة إلى الحياة الجديدة. وهي الطبقة الوسطى، التي صاروا يعبرون عن مضامينها في شعرهم. ومعروف أن هذا المذهب، هو أدب فردي، يعنى بمشاعر الانسان، ويسعى إلى تحقيق المبادئ التي تسمو به إلى الحرية والسعادة، ويسعى في تعبيره إلى البعد عن عناصر الزخرفة والصنعة.

وقد امعنت الرومانتيكية في الخيال، ونشدت البساطة في التعبير، وسلكت طريق الفطرة والطبع الصادق، ونادت باستيحاء الاديب لمشاعره وعواطفه وأحاسيسه وابتعدت عن التكلف، وتجنبت التشبيهات المتوارثة عن القديم.

واحتلت العاطفة مكاناً كبيراً في شعرهم، فالحب عندهم فضيلة وسعادة منشودة مهما قاسى الإنسان في سبيل تحقيقها، وهو لا يطلب الجسد ولكنه يطلب متعة الروح 'ومن أهدافهم بناء عالم تتحقق فيه حرية الانسان، بعيداً عن كل المواضيع الاجتماعية القائمة وقد عشقوا الطبيعة ولجأوا إلى الغاب، هروباً من المدينة وسعياً إلى الترويح عما في نفوسهم من المآسي والآلام ن وبثوها ما يشعرون به من شقاء وما يعانون من وحدة المجتمع ومن هنا حلّقوا في اجوائها على أجنحة الخيال حالمين (بيوتوبيا) أشبه بجمهورية أفلاطون- ولقد كانت ظروف هؤلاء الشعراء الخاصة، وظروف أمتهم العامة مهياً لاستقبال هذا المذهب ومن هنا رحوا يقرأون شعر سيلبي وودزورثوبايرون ولامارتين والفرد دي فيني ما يعبر عم تطلعهم نحو الجديد.

واندفعوا إلى شعر الرمزيين يعتمدون الإيحاء والصور الظليلة في أساليبه، بعيداً عن المباشرة، ومن هنا كانت عنايتهم بالعنصر الموسيقي الذي يعتمد الإيحاء بعيداً عن جلجلة العبارات التي رأيناها عند شوقي وشعراء جيله إلى البارودي.

ولقد طبع تأثرهم بهذا المذهب بطابع حزين، يسعى إلى تجسيد الألم والتغني به إلى حد طلب الموت، وهو ما يشيع كثيراً لدى شكري والعقاد والمازني.

والحق أن (عصور الانتقال تخلق جواً من الفلق والتردد في النفوس بما توجده من صراع بين التقاليد الموروثة، والتقاليد المستحدثة ولكن إذا كان عصر الانتقال بشعره هو المسؤول عن ذلك الألم وتلك الهموم التي تملأ أشعارهم، فلم اتضح عندهم بهذه الصورة القوية دون غيرهم، من الشعراء الذين عاصروهم والذين تحدثنا عنهم من قبل؟ الواقع أن أثر الشعر الرومانتيكي الأوربي كان عميقاً في نفوسهم ثم في إنتاجهم، فالذين كانوا يحسون هذا الضيق هم الذين تغذوا على ذلك الادب الرومانتيكي، فذلك الادب بما يصوره من أجواء حالمة تضيء على الحزن والألم لونهاً من العذوبة، هو الذي حبب الألم إلى الشباب وحتى القصاصد التي ترجمها هؤلاء الشعراء، أو عربوها عن الشعر الأوربي، تدل على إعجابهم وتأثرهم بذلك الشعر الحزين).

على أن تأثير المذهب الرومانتيكي وحده لم يكن كافياً لإنتاج شعر رومانتيكي، ما لم تدعمه عوامل أخرى. تتبع من نفوسهم التواقة إلى الحرية الساعية إلى الآمال، فتلك اسباب تتصل بذواتهم وحسب، غير أن هؤلاء لم ينفصلوا عن شعبهم وأمتهم ولم يقفوا متفرجين على ما حدث في بلدانهم، فقد كان الاستعمار يطبق على وطنهم سعيًا إلى نهب الخيرات وتكبييل الحريات، وإيقافاً لما بدا أنه تمرد على وجوده، وخطر على الحكام الذين يسرون في ركابه. ومن هنا قامت ثورات تزلزل الأرض من تحت أقدامهم، ولكنها باءت بالهزيمة إذا لم تكن موازين القوى متكافئة، كما لم يتحقق آنئذ وعي سياسي ووطني يمد الشعب بنسخ من الصمود والتحدي. وهذا كله انتهى بعجز الأمة عن تحقيق الحرية والاستغلال والسيادة. وقد طبع ذلك كله الأسى في نفوس الشعراء.

والمهم أيضاً شعورهم بالغنى في حياتهم الاجتماعية، وضيق ذات يدهم، بينما يتفوق في هذا عليهم أبناء الطبقة الخاصة ممن لا يمتلكون ما يمتلكون هم من مواهب وقدرات ومن هنا أكثروا الشكوى في شعرهم. وضاقوا ذرعاً بالحياة بالمجتمع الذي أهملهم، فانطبع شعرهم على الشكوى حيناً، والتمرد أحياناً، وانعكس ذلك غناءً شجياً أو ثورة عارمة على الدنيا وما فيها، وانتهى بهم ذلك أحياناً إلى طلب الموت. وهكذا تجتمع عوامل عديدة لتؤدي إلى الدعوة إلى الشعر الجديد.

وإذا كان التأثير بالادب الأوربي يحتل مركز الصدارة بين العوامل الأخرى، فهذا لا يعني أن جماعة الديوان قد قلدت ذلك الادب، بل هي أفادت منه واهتدت. بضيائه وقد ألمح إلى ذلك ناقد الجماعة الأول، عباس محمود العقاد حين أشار إلى تأثير جماعة الديوان بالشعراء والنقاد الأوربيين، ورأى أن هذا التأثير لا يعني التقليد بقدر ما يعني الاهتداء وذلك حين قال (وقد سرى من روح هؤلاء - يعني الادباء الانكليز - الشيء الكثير إلى الشعراء المصريين الذين نشأوا بعهد

شوقي وزملائه، ولكنه كان سريان التشابه في المزاج، واتجاه العصر كله، ولم يكن تشابه التقليد والفناء، أو هو سريان جاء من تشابه في فهم رسالة الشعر والادب، لا من تشابه فيما عدا ذلك من تفصيل). .

ويبدو أن شعراء الديوان هؤلاء قد أفادوا من كتاب (الكنز الذهبي) وهي مجموعة مختارات من الشعر الغنائي الانكليزي تحتوي على قصائد وجدانية ذاتية رائعة، ويتضح تأثيرها فيما ترجمه المازني منها في مطلع الجزء الثاني من ديوانه.

ويلاحظ الدارسون أن الكثير من المعاني الشعرية التي تحتوي عليها متوفرة في شعر جماعة الديوان. تلك هي العوامل الرئيسية التي أدت إلى الدعوة التجديدية عند جماعة الديوان، وهي عوامل يتفاوت تأثيرها، إذ يتصل بعضها بالشعراء أنفسهم، بينما يتصل البعض الآخر بظروفهم وبالتيارات الفكرية والسياسية والمذاهب الأدبية والنقدية، وهذه العوامل مجتمعة، قد تفاعلت لتدفع بهم إلى المناداة بالدعوة إلى تجديد الشعر في ظل مفاهيم نقدية جديدة، ربما فاقت في روعتها وقيمتها معظم ما انتجوه من شعر.

المصادر:

١- الرومانتيكية - محمد غنيمي هلال

٢- تطور الشعر العربي الحديث في مصر